JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م/١٤٤٣هـ
العدد الثالث
(١٠١) -(١١٨)

دراسة عناصر مابعد الاستعمار في رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي

أ.م.د بيمان صالحي هشام طه زيدان
جامعة ايلام
hushamtaha1980@gmail.com p.salehi@Ilam.ac.ir

الملخّص

تهتمّ دراسات ما بعد الاستعمار بوصفها جزءا من النقد الثقافي بتأثير الهيمنة الاستعمارية على ثقافة الأمم المستعمرة بعد نهاية الفترة الاستعمارية ويشارك في آثار الاستعمار وأعماله على المجتمعات وثقافتها. تسعى هذه الدراسة إلى أن تدرس رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي الكاتبة الجزائرية على أساس عناصر مابعد الإستعمار مستفيدة من المنهج الوصفي- التحليلي. تخبرنا النتائج أنّ مستغانمي في روايتها هذه تسعى إلى اكتشاف جهود الاستعمار الجديد لتدمير هوية دول الشرق واستقلالها السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي، مستخدمة التفسيرات المباشرة وغير المباشرة (الرموز). في الواقع، وجهة نظر مستغانمي في هذه الرواية تُلخّص في اكتشاف التناقضات الناجمة عن مواجهة ثقافتين متناقضتين نتيجة القلق الثقافي بعد الحقبة الاستعمارية وثورة الملل المستعمَرة. تقدم الرواية أيضاً العودة إلى التقاليد واكتشاف الذات للهوية والمعرفة بوصفهااستراتيجية أساسية للتعامل مع الآثار المدمرة للاستعمار في ثقافة الأمم المستعمَرة.

الكلمات الرئيسية: أحلام مستغانمي، "ذاكرة الجسد"، مابعد الاستعمار، المستعمِر، المستعمَر، الرواية.

A study of the Post_ colonial Elements in Ahlam Mustaghanmi's Novel Memory of the Body

Assist Prof. Biman Salihi Husham Taha Zeidan Al_Itbi
Ilam University

Abstract

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م/١٤٤٣هـ

Postcolonial studies, as part of cultural criticism, are concerned with the impact of colonial domination on the culture of colonial nations after the end of the colonial period and participate in the effects and actions of colonialism on societies and their culture. This study seeks to study the novel "Memory of the Body" by Ahlam Mosteghanemi, the courageous writer, on the basis of post-colonial elements, benefiting from the descriptive-analytical method. The results tell us that Mosteghanemi in her novel seeks to discover the efforts of neo-colonialism to destroy the identity of the countries of the East and their political, cultural, social and economic independence, using direct and indirect interpretations (symbols). In fact, Mosteghanemi's point of view in this novel is summarized in discovering the contradictions resulting from the confrontation of two contradictory cultures as a result of cultural anxiety after the colonial era and the revolution of colonial boredom. The novel also presents a return to tradition and self-discovery of identity and knowledge as a key strategy for dealing with the devastating effects of colonialism on the culture of colonized nations.

Key words: Ahlam Mosteghanemi, "memory of the body", post-colonialism, the colonizer, the colonized, the novel.

١- المقدّمة

يُعتبر نقد ما بعد الاستعمار أحد إنجازات الدراسات الأدبية والفنية لحقبة ما بعد الاستعمار أو «ما بعد الكولونيالي»، (Postcolonialism) في القرن العشرين. قامت هذه النظرية بنقد العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر متزامناً مع عصر ما بعد الحداثة، وبموقف تفكيكي، تحاول تقويض المنظور الغربي لثقافة المجتمعات غير الغربية (ترنر، ١٣٨٤: ٩٤)؛ لأنّ الهيمنة الاقتصادية والسياسية للغرب باعتبارها الكلمات الرئيسية للإمبريالية كانت دائماً مصحوبة بخطابات تم فيها إنكار "الآخر" للشعوب الآسيوية والأفريقية كما تم استعمارها ثقافياً. (بوين ورطانسي، ١٣٨٠: ٤١٩). من هذا المنظور، يمكن

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م/١٤٤٣هـ

اعتبار أدب ما بعد الاستعمار مرآة كاملة لظهور الأفكار المستنيرة في بعض البلدان التى ذاقت الطعم المر للاستعمار وشهدت تحولاً في هوية أبناءها وجنسيتهم ولغتهم وثقافتهم.

تطوّرت نظرية ما بعد الاستعمار، بسرعة في الثمانينيات من القرن العشرين لسببين مترابطين: تأثير النظرية النقدية، وظهور منهج ذي طابع ثقافي أكثر في الأكاديمية لتناوُل الأمور التي تبدو ملموسة في التاريخ والسياسة والمجتمع. فبدايةً من أواخر السبعينيات من القرن العشرين، أثار العديد من أعمدة الفكر حِراكاً في رؤى النظرية النقدية البنيوية وما بعد البنيوية، خاصة من جانب الفلاسفة الناطقين بالفرنسية فيما يتعلق بتناوُلِ الاستعمار وكيفية مقاومته. وذهب كلٌّ منهم بأسلوبه وبطريقة مثيرة فكريّاً إلى أنّ طُرق التفكير والإبداع ليست تالية في الأهمية لمصائر المستعمرات، وإنما هي في الواقع مكوّن أساسي من مكوّنات النزعة الاستعمارية عامة. «وعلى الرغم من أنّ دراسة قوة التمثيل المسيطرة داخل المجتمعات المستعمرة، انطلقت في أواخر السبعينيات من أعمال إدوارد سعيد مثل كتاب «الاستشراق»، وأفضت إلى تشكل ما عُرف لاحقاً باسم نظرية الخطاب الكولونيالي في أعمال نقّاد مثل هومي بابا (H. Bhabha) وغاياتري سبيفاك (G. Spivak)؛ فالمصطلح الفعلي «ما بعد الكولونيالي»، لم يُوظف في تلك الدراسات الأولى حول قوة الخطاب الكولونيالي في تشكيل الرأي والسياسات في المستعمرات. على سبيل المثال استخدمت سبيفاك مصطلح ما بعد الكولونيالي لأول مرة في مجموعة المقابلات الشخصية والكتابات المجمعة التي نُشرت عام ١٩٩٠م تحت عنوان «الناقد ما بعد الكولونيالي». وعلى الرغم من أن دراسة تأثيرات التمثيل الكولونيالي كانت محورية في أعمال هؤلاء النقاد، فإن مصطلح «ما بعد الكولونيالي» في حد ذاته استُخدِم في البداية للإشارة إلى أشكال التفاعل الثقافي داخل المجتمعات الكولونيالية في الدوائر الأدبية.» (أشكروفت والآخرون، ٢٠١٠: ٢٨٢). في هذا الأثناء، كما أشرنا، كتّاب ما بعد الاستعمار مع فهم عميق لمخاطر الاستعمار، وبشكل مباشر، منسجمين مع الحركات السياسية والاجتماعية المناهضة للاستعمار في بلدانهم، كانوا رواداً في التفكير المناهض للاستعمار واستخدموا قلمهم لدعم هذه الحركات.

١-١- أسئلة البحث

يسعى هذا البحث إلى تحديد موقف أحلام مستغانمي و تسليط الأضواء على وجهة نظرها في رواية "ذاكرة الجسد" من خلال مراجعة أفكارها والتحليل النقدي لهذه الرواية بناءً على نظرية ما بعد الاستعمار، مستفيداً من المنهج الوصفي- التحليلي وفي النهاية تمكّن من الإجابة على الأسئلة التالية:

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م/١٤٤٣هـ

١- ما أهمّ عناصر ما بعد الاستعمار في رواية "ذاكرة الجسد"؟

٢- ما النهج الذي استخدمته مستغانمي في تناول قضيّة الاستعمار وعناصره في روايتها هذه؟

١- ٢- الأسس النظرية للبحث

أ: الاستعمار

الإستعمار هو مصدر باب الاستفعال بمعنى الرغبة في الإزدهار والتطوّر. «استعمر الأرض» أيّ، قام بتجهيز تلك الأرض بالعمالة لغرض التنمية، وقد ورد هذا المعنى في سورة هود الآية ٦١ على النحو التالي: «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا». وبهذا المعنى فهو يساوي معنى «Colonization»، بمعنى هجرة مجموعة من أبناء الدول المتحضّرة إلى الأراضي غير المأهولة والمتخلّفة من أجل تطوير تلك الأرض أو تحضّرها. لكنّ حقيقة ظاهرة الاستعمار تختلف عن معناها الحرفي في الممارسة العملية، بل تعني "هيمنة المجتمعات والدول القوية على المجتمعات والأراضي الأخرى لاستغلالها". (رهنما، ١٣٥٠: ١٥) وبهذا المعنى، فهي تعادل كلمة «الاحتلال» و «يشرف على معاملة الدول ذات القدرات السياسية والعسكرية من قِبَل الأراضي الاستعمارية».(كولد و كولب، ١٣٩٢: ٥٧)

ب: مابعد الاستعمار

يُعتَبر مصطلح "ما بعد الاستعمار" نتاج بعض التطورات الثقافية بعد الحرب العالمية الثانية. «إنّ مفهوم ما بعد الاستعمار، كما استُخدِم في الأصل من قِبَل مؤرخي ما بعد الحرب العالمية الثانية بمصطلحات مثل حكم ما بعد الاستعمار، له معنى تاريخي بحت ويمثّل فترة ما بعد الاستقلال، لكن منذ النصف الثاني من السبعينيات، استخدم نقاد الأدب المصطلح لمناقشة الآثار الثقافية للاستعمار.» (أشكروفت، ١٩٩٨: ١٨٦).

لذلك، فإنّ الغرض من دراسات ما بعد الاستعمار هو فحص جودة انعكاس المواقف الاستعمارية أو المناهضة للاستعمار في النصوص كساحة للمواجهة الثقافية. بعبارة أخرى، «مصطلح ما بعد الاستعمار قد استُخدِم للإشارة إلى أشكال التفاعل الثقافي داخل المجتمعات المستعمرة في الساحة الأدبية» (نفس المصدر: ٢٨٣).

ج: أدب ما بعد الاستعمار

إنّ أدب ما بعد الاستعمار يتناول تجارب المهاجرين أو أبناء المهاجرين الذين استوطنوا في الغرب الاستعماري أو مراكز الإمبراطوريات الاستعمارية، أو الذين ظلوا في بلدانهم التي تخلّت عن لغتها

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م/١٤٤٣هـ

الخاصة وتبنّتْ لغةَ المستعمِر لغةً رسميةً لها، واستخدموا هذه اللغة في كتابة أدبهم، وإن كانت هذه التجارب أكثر ثراء من تجارب المستعمِر في أدب الاستعمار، لأنها تتلاحم مع جوانب متعددة من تجارب عصر ما بعد الاستعمار بالمعنى التاريخي للمصطلح، سواء أكان ذلك يتعلق في معظمه بالحياة وسط مجتمع المستعمِر ذاته بعد أن عاد إلى قواعده في مركز الإمبراطورية، أو بالحياة في الدول التي كانت خاضعة للاستعمار والتي هاجر عنها أو منها الكاتب أو الكاتبة، ويرجع إليها على مستوى الحنين أو التخيُّل أو حتى الواقع.

ظهرت أدب ما بعد الاستعمار في النصف الثاني من القرن العشرين في سياق البلدان الاستعمارية التي سعت إلى إنهاء الاستعمار من ثقافتها وتاريخها وأدبها، والأهم من ذلك هويتها. "أدب ما بعد الاستعمار نوع من" أدب المقاومة" الذي يثور ضد الاضطهاد والاستسلام لمفاهيمه ويرتبط دائماً بالأنشطة التحررية، (الأسطة، ٢٠٠٨: ٩)، إنه خطاب أدبي يتكوّن من آراء تنتقد النصوص الأدبية للدول المستعمرة من أجل تحليل الخطاب الاستعماري وما بعد الاستعمار، ويفحص العلاقة بين المحوِّلين والمتحوَّلين. (ميرزائى وأميريان، ١٣٩٤: ٢٤٨).

يعتمد هذا الخطاب على دعم ثقافته ضد الهيمنة الغربية ومن خلال اعتبار أثر البنّاء للأدب أسلوبا يستخدمه المستعمرون للدفاع عن هويتهم وبقاء تاريخهم، إنه يقلّب المفاهيم الاستعمارية، وهو أهم سمة في أدب ما بعد الاستعمار (سعيد، ٢٠٠٦م: ١٧). يركّز كتاب ما بعد الاستعمار في كتاباتهم على الهوية الثقافية لمجتمعهم الاستعماري وينصب تركيزهم على إحياء وتطوير وتعزيز الهوية الوطنية التي تم تهميشها وتجاهلها لسنوات.

١- ٣- خلاصة الرواية

خالد بن طوبار من أبناء ثورة الجزائر وأحد أبطالها الذي حارب بكل ما أوتي من قوة ومن شجاعة في تلك الفترة إذ فقد ذراعه أثناء الحرب، إلى أن أصابه الوهن والضعف وخيبة الأمل التي أضاعت أحلامه، بل أضاعت وطنه كله بعدما وجد أنَّ الجزائر لم تعد كما كان دوماً يحلم بها، بل تغلل فيها الفساد كما يغمر الماء الأرض، وأصبح قانون مصلحة، وأصحاب النفوذ والسطوة من الحكومة أصبح لهم الكلمة العليا ولا يعلو صوت على صوتهم، وتنحت المبادئ والأخلاق والقيم جانباً، وتنحى معها خالد وغادر إلى فرنسا ومكث فيها طويلاً حتّى جمع اللقاء بينه وبين حياة ابنة صديقه سي الطاهر تُدعى حياة، الذي رافقه طويلاً في الحرب ضد الاحتلال، لكنّه قُتِلَ أثناء الحرب التحريرية الكبرى ضد الاستعمار الفرنسي للجزائر. وكانت حياة آنذاك فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها أصابع اليد الواحدة، والآن

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م/١٤٤٣هـ

أصبحت فتاة يانعة ورائعة الجمال، وجاءت إلى فرنسا تسعى وراء ذكريات والدها سي الطاهر، وكلّ تفاصيل حياته التي لم تعشها معه، لذلك بحثت عن خالد كثيراً إلى أن وجدت معرض للفنون وهو يشارك به خالد يهوي الرسم ويبدع فيه ورغم إصابته في الحرب وفقدان ذراعه لم يمنعه ذلك من هوايته، فهو يعبّر عن كلّ ما يدور بخاطره وأحلامه الضائعة في وطنه بالرّسم. أما هي فتغرم به دون اعتراف منها بذلك، ومع ظهور صديق له يُدعى زياد وهو مناضل في الثورة الفلسطينية تتشابك الأحداث بينهما (خالد وحياة)، لكن وفي الأخير تواجه تقاليد مجتمعها وستتزوّج بشخصية كبيرة وذات نفوذ ضخمة في الحكومة الجزائرية، هذا الزواج وظروف قاهرة الأخرى التي يمرّ بها خالد تتسبّب في انهيار حياته كلّها.

٢- "ذاكرة الجسد" ونظرية مابعد الاستعمار

في هذا القسم، نستعرض أهم عناصر ما بعد الاستعمار في رواية "ذاكرة الجسد":

٢-١- المواجهة بين الشرق والغرب

الشرق في أدب ما بعد الاستعمار، وخاصة من وجهة نظر إدوارد سعيد، كلمة تكررت في الأزمنة والأمكنة المختلفة وتمثّلها القوى الأيديولوجية، ويتم استجوابهم، ومن المفارقات أنّ هذه القوات موجودة في الغرب؛ بمعنى آخر، الشرق موضوع درسه العلماء الغربيون دائماً ودعوا الآخرين إلى دراسته. في النهج الغربي للشرق، دائماً ما يكون الشرق ثابتاً وغير تاريخي؛ بعبارة أخرى، فقد خرج من التاريخ، بينما نشأ الغرب في مختلف مراحل الحداثة عبر التاريخ (إليوت وترنر، ١٣٩٠: ٦٧٨).

من هذا المنظور، فإنّ مفهوم الشرق في رواية "ذاكرة الجسد" هو بمعنى نوع من توجه الهوية الذي تبنّته الأمم المستعمرة نتيجة المخططات التي وضعها الغرب في الأراضي المحتلة. وقد أدّى هذا النوع من التوجه والاستسلام في النهاية إلى تحوّل الهوية الاجتماعية في جميع أبعادها الثقافية والسياسية وحتى العسكرية. وهذا يذكّرنا برأي إدوارد سعيد في هذا الصدد: «الأفكار والثقافات والتاريخ لا يمكن فهمها أو دراستها دون دراسة قوّتها أو بشكل أدق، مزيج قوّتها.» (سعيد، ٢٠٠٦م: ٤٠).

تشير مستغانمي في أجزاء من الرواية مباشرة إلى تحوّل الشرق في مواجهة القوة الغربية وهيمنتها على لسان خالد وتذكّر أنّ نتيجة هذه الهيمنة ليست سوى خروج الجزائر من الموقف السلبي ضد الاستعمار؛ الخروج الذي جعل الجزائر أداة للاستعمار:

«فهل من عجب أن يكون بين الذين سُجنوا وعُذّبوا بعد تلك المظاهرات، الكثير منهم، هم الذين كانوا بحكم ثقافتهم الغربية يتمتّعون بوعي سياسي مبكّر، وبفائض وطنية، وفائض أحلام.

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م /١٤٤٣هـ

والذين أدركوا، والحرب العالمية تنتهي لصالح فرانسا والحلفاء، أنّ فرانسا استخدمت الجزائريين ليخوضوا حرباً لم تكن حربهم، وأنّهم دفعوا آلاف الموتى في معارك لاتعنيهم، ليعودوا بعد ذلك إلى عبوديتها.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٣٢).

في الواقع، «تستند الفكرة الاستعمارية إلى فرضية أنّ الغربيين هم المسيطرون وأنّ الشرقيين يجب أن يُسيطَروا، وهذه الهيمنة تعني أنّ أراضيهم يجب أن تُحتل، وشؤونهم الداخلية تخضع لرقابة مشدّدة وحياتهم وممتلكاتهم تحت سيطرة قوة غربية.» (سعيد، ٢٠٠٦م: ٧٥).

يمنح الاستعمار لنفسه الحق في قمع أي معارضة أو تمرّد ضدّه والقيام بذلك بأبشع طريق. تذكر مستغانمي على لسان خالد أمثلة على هذا القمع في روايتها:

«وكان الوطن في صيف ١٩٦٠ بركاناً يموت ويولد كلّ يوم. وتتقاطع مع موته وميلاده، أكثر من قصّة، بعضها مؤلم وبعضها مُدهش...» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٤٧).

يُسجَن المقاتلون من أجل الحرية ويُعاقبون من قِبَل المستعمر:

«سنة ١٩٥٥، أي عشر سنوات بالضّبط بعد أحداث ٨ ماي ١٩٤٥، عاد هذا السجن للصدارة، بدفعة جديدة لسجناء استثنائيين كانت فرانسا تعدّ لهم عقاباً استثنائياً.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٣٢٣).

وتؤكّد الكاتبة على حد تعبير خالد أنّ الاستعمار يستخدم كل وسيلة للضغط على مستعمراته للحفاظ على بقائه وتدمير المدن المستعمَرة:

«فكم من مدينة عربية دخلت التاريخ بمذابحها الجماعية، ومازالت مغلقة على مغابرها السرّية! كم من مدينة عربيّة أصبح سكانها شهداء.. قبل أن يصبحوا مواطنين!» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٣٩٦).

ومن وجهة نظر مستغانمي فإنّ الشرق استعمر نفس الوطن الذي لا يتردّد عن التضحية بحياته حفاظاً على سمعته وصون شرفه.

٢-٢- الوطن

يُعتبر الوطن أحد عناصر ما بعد الاستعمار من وجهة نظر مستغانمي. "تُثار قضية الوطن في أدب أيّ أمة، بجدية أكبر في أزمات الاستعمار والحرب والثورة" (يحيى بور والآخرون، ١٣٩١: ١٠٢).

يعبّر التعبير الشعري عن حب الوطن والتضحية في سبيله، والنضال ضد الاستبداد والاستعمار، أهمّ السمات البارزة للوطن في أعمال ما بعد الاستعمار. في رواية "ذاكرة الجسد" يُصَوَّر الوطن على أنه

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م /١٤٤٣هـ

المحور الرئيسي لعناصر القصة وأحداثها. تُعبّر مستغاني عن حبّها لوطنها المستعمَر وقيمه وكراهية كل ما يهاجم هذه القيم:

«نحمل الوطن أثاثاً لغربتنا، ننسى عندما يضعنا الوطن عند بابه، عندما يغلق قلبه في وجهنا، دون أن يلقي نظرة على حقائبنا، دون أن يستوقفه دمعنا. ننسى أن نسأله من سيؤثّثه بعدنا.

وعندما نعود إليه، نعود بحقائب الحنين وحفنة أحلام فقط.

نعود بأحلام وردية لا "بأكياس وردية"، فالحلم لايستورد من محلاّت «تأتي» الرخيصة الثمن.

عارٌ أن نشتري الوطن ونبيعه حلماً في السوق السوداء. هنالك إهانات أصعب على الشهداء من ألف عملة صعبة.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٢٨٣).

يتخذ الوطن أشكالاً مختلفة في رواية "ذاكرة الجسد". أحياناً بشكل قسنطينة، وأحياناً الجزائر، وأحياناً كل البلاد العربية، وأحياناً تُعتبر النساء والعشاق والأمهات رموزاً للوطن المؤلم والمستعمَر. وفي بعض الأحيان يتم خلق جو الرواية هذه، متأثراً بالرغبات والتطلعات الشخصية للمؤلفة الموالية للثورة والاستقرار؛ أي أنّ شكل خلق الجو في النص هذا متجذّر في الخيال الصادق والرغبات غير القابلة للتحقيق للفنانة الملتزمة. إنّ أكثر ما يتجلّى في أعمال مستغانمي الأدبية، مثل غيرها من الكتّاب في مجال أدب المقاومة العربي، هو أنّ مستغانمي تشير إلى الوطن على أنه "الأم" وترسم تعاطفها:

«فهل هذا هو الوطن؟ قسنطينة... كيف أنتِ يا أميمة... وأشكِ؟ أشرعي بابك واحضنيني... موجعة تلك الغربة، موجعة هذه العودة» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٢٨٤).

«أم تراها قسنطينة.. تلك الأمّ المتطرّفة العواطف، حبّاً وكراهية، حناناً وقسوة، هي التي حوّلتني بوطأة قدم واحدة على ترابها، إلى ذلك الشباب المرتبك الخجول الذي كنته قبل ثلاثين سنة؟» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٢٨٧).

وطن يعاني أحياناً ويريد أن يعيد أبنائه إلى نفسه، حتى لو ماتوا على هذا النحو:

«تلك الأمّ الطاغية التي تتربّص أقسمت أن تعيدنا إليها ولو جثّة.

ها هي قد هزمتنا، وأعادتنا إليها معاً.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٣٩١).

ينعكس تشابك المرأة ووطن الكاتبة الجريح في رواية "ذاكرة الجسد" أكثر من أي عناصر أخرى، حيث يقول على لسان خالد:

«يا امرأة على شاكلة الجسد...» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٢٨١).

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م /١٤٤٣هـ

وأيضاً في حوار خالد مع حياة، حول زواجها من رجل وطني، أعلن أنّها بذلك قد وصمت نفسها واشترت لوم الأجيال الآتية لنفسها:

«أنت لست امرأة فقط، أنت وطن، أفلا يهمّك ما سيكتبه التاريخ يوماً؟» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٢٧٧).

في هذه الرواية، لم تُرسم بالأسود ولا بالأبيض صورة حياة التي تحمل رموز الوطن، بدلاً من ذلك، فإنّها تتحرّك باستمرار في البيوت الشطرنجية من هذه القصة. يجد خالد قسنطينة في حياة نفسها، حيث تصرفاتها وأفعالها تستحضر له الوطن في المنفى:

«كنت أشهد تغيّرك المفاجئ، وأنت تأخذين يوماً بعد يوم ملامح قسنطينة، تلبسين تضاريسها، تسكنين كهوفها وذاكرتها ومغاراتها السرّية، تزورين أولياءها، تتعطرين ببخورها، ترتدين قندورة عنّابي من القطيفة، في لون ثياب «أمّا»، تمشين وتعودين على جسورها، فأكاد أسمع وقع خلخالك الذّهبي يرنّ في كهوف الذّاكرة.

أكاد ألمح آثار الحناء على كعب قدميك المهيّأتين للأعياد.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ١٤٢).

يشرح خالد الذي يشبّه امرأة بالمدينة سبب هذا التشابه في حديث داخلي:

«اكتشفت بعدها بنفسي التطابق بينك وبين تلك المدينة.

كان فيكما معاً، شيء من اللّهيب الذي لم ينطفئ، وقدرة خارقة على إشعال الحرائق.

ولكنّكما معاً، كنتما تتظاهران بإعلان الحرب على المجوس. إنّه زيف المدن العريقة المحترمة، ونفاق بنات العائلات، أليس كذلك؟» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٢٧٤).

من وجهة نظر خالد، فإنّ من أوجه الشبه بين حياة والوطن أنّها مجموعة الأضداد:

«كنتِ فقط كهذه الوطن يحمل كلّ شيء ضدّه.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٣٨٠).

يريد زياد أن تحافظ حياة على كرامتها وقوتها كرمز للوطن:

«احملي هذا الإسم بكبرياء أكبر، ليس بالضرورة بغرور، ولكن بوعي عميق أنّك أكثر من امرأة.

أنتِ وطن بأكمله. هل تعين هذا؟ ليس من حقّ الرموز أن تتهشّم.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٣٨١).

على كل حال، فإنّ للوطن مكانة عالية عند مستغانمي. وطن مستعمَر يتجلّى أحياناً في صورة قسنطينة والجزائر وحياة والحبيبة ورموز أخرى. تعتبر مستغانمي الوطن أساساً لكلّ الظواهر وترى أنّ حب الوطن والسعي من أجل استقلاله يمهّدان الطريق لازدهاره، وتطوّره، وتحرّره من الاستعمار وآثاره.

٢-٣- اللغة هي رمز لهوية الوطن القديمة

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م/١٤٤٣هـ

من أجل إظهار الصراع بين الشرق والغرب، وأخيراً، تحوّل الشرق في هذا الموقف، تولي مستغانمي اهتماماً بالغاً لعنصر أساسي ومهمّ المُسمّى باللغة في قصّتها.

اللغة هي تعبير عن الهوية والقوة في صميم الشعب وثقافته. تتشكّل الهوية حول اللغة. التناقض الذي يخلقه الاستعمار هو الصدام بين اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة. نرى في رواية "ذاكرة الجسد" نوعاً من الصراع غير المثمر في مجال اللغة. ما اعتبرته الكاتبة في هذا الصدد هو لهجة الناس في الرواية هذه على أنهم لا يتحدّثون العربية بشكل صحيح ولا يتحدّثون الفرنسية بالكامل. هذه الشخصيات العربية التى أصلها من العرب تتكلّم الفرنسية عندما تتحدّث عن قضايا فنّية أو اجتماعية أو سياسية أو في حالة من الغضب والإثارة. مثال على هذا الصراع هو عندما يرى خالد حياة بعد سنوات في معرض للرسم ويحييها باللغة الفرنسية، وهي اللغة التي يشعرها بالغربة:

«كانت الكلمات تتعثّر يومها على لساني، وكأنّني أتحدّث لك بلغة لا أعرفها...

بلغة لاتعرف شيئاً عنّا. أيعقل بعد عشرين سنة أن أصافحك وأسألك بلغة فرنسية محايدة

فتردّين عليّ بنفس المسافة اللغويّة...» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٦٦).

وفي مكان آخر حينما يحيئها خالد بالفرنسية فيتلقّى رد أحلام بالفرنسية:

«أسألك هل وجدت البيت بسهولة؟ فتأتي الكلمات بالفرنسية (لماذا أيضا بالفرنسية؟) تراني كنت أبحث عن حريّة أو جرأة أكثر، داخل تلك اللغة العربية عن تقاليدي وحواجزي النفسيّة» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ١٥٨).

عندما يرى خالد ياسين وهو مسجون معه في سجن الكدية في قاعة تونسية، يضحك عنه ياسين ويتحدّث معه بالفرنسية:

«وقال بالفرنسية: أنت أيضاً لم تتغيّر.. مازلت مجنوناً!» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٣٢٦).

لكن خالد، بوصفه شخصية تؤكد على مبادئه الوطنية و هو في باريس، كانت قسنطينة ووطنه وثقافته العربية مهمّة بالنسبة له، فهو يحاول التحدّث باللغة العربية. فيما يتعلق بمسألة هوية الشخصيات، يمكن تفسيره بطريقة تتناسب مع أزمة الهوية وانتعاش اللغة في مجتمعات ذات أجزاء وهويات متعددة:

«كان يمكن أن أكتب بالفرنسية، ولكن العربية هي لغتي.. ولايمكن أن أكتب إلاّ بها.. نحن نكتب باللغة التي نحسّ بها الأشياء» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٩١).

كما يطلب من حياة التحدث بالعربية:

JOBS مجلة العلوم الأساسية Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م/١٤٤٣هـ

«إسمعي.. لن نتحدّث إلى بعض إلاّ بالعربية.. سأغيّر عادتك بعد اليوم.. سألتني بالعربية: هل ستقدر؟» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٩١).

بالنظر إلى رواية "ذاكرة الجسد" وموقف الكاتبة من فئة اللغة، نجد أنّ أحلام مستغانمي وخالد روائي قصتها كلاهما عالقان في نوع من الصراع بين لغتهما واللغة المفروضة. وهناك احتمالات كثيرة، منها هل سيتأقلمان مع اللغة الجديدة أم يرفضانها أم يستخدمانها أداة لمحاربة المستعمرين؟ هل سيحضرانها إلى عالمها الخاص أم إلى عالم آخر كان من الصعب اختراقه في الماضي؟

«كانت اللغة الفرنسية تستدرجني تلقائياً بحريّتها للقول دون عقد.. ولاخجل.

معك رحت اكتشف العربية من جديد. أتعلّم التحايل على هيبتها، أستسلم لإغرائها السري، لإيحاءاتها» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٢١٨).

تنبئنا نظرة عابرة على خالد وأفكاره أنّ اللغة المكتوبة بوصفها مظهرا من مظاهر ما بعد الاستعمار، تخترق مؤسسات الدين والمجتمع، وإنه يدعو إلى التشكيك في التقاليد الشفوية القديمة ويسعى العقد الجديد للكتابة إلى استبداله. هذه الازدواجية، أي نضال الشعوب الأصلية للحفاظ على الهوية أو إعادة تشكيلها ومواجهة التغيير المفاجئ للأشكال الثقافية، تتميز بما بعد الاستعمار. تكشف مستغانمي في الحوار بين شخصيات الرواية عن عنصر آخر في مرحلة ما بعد الاستعمار. الإنسان الذي ناضل لسنوات من أجل تحرير الوطن، يجد نفسه أحياناً في نوع من الارتباك في أهم رمز للاستقلال، وهو استخدام اللغة الأم.

٢- ٤- الدّونية

عنصر الدونية يقوم بدراسة "الصمت في الأرشيف، دراسة الأصوات المدفونة في ظل سياسات مقننة، فصل الماضي عن التاريخ والتأكيد على الاختلافات بدلاً من التشابه، نقد صياغة خطاب القوة في التأريخ الرسمي والتأكيد على إحياء الامكانيات الأصلة مقابل غير الأصلية.» (أشكروفت والآخرون، ٢٠١٠م: ٥١).

يؤكد «سبيفاك» من بين منظري ما بعد الاستعمار، على ما يُسمّى بالدونية في دراسات ما بعد الاستعمار. يستخدم سبيفاك المصطلح لوصف الطبقات الدنيا من المجتمع الاستعماري وما بعد الاستعمار؛ أي، المتشردون، العاطلون عن العمل، الفلاحون، الفقراء، العمال،...إلخ.» (برتنز، ١٣٨٨: ٢٧١).

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م /١٤٤٣هـ

الانتباه إلى الدونية وآلامها وهمومها يمكن ملاحظتها في رواية مستغانمي، حيث تنتقد الثورات العربية المنحرفة التي لاتزال تحت الحكم الاستعماري:

«لقد بدأت كل الثورات الصناعية في العالم من الإنسان نفسه، ولذا أصبح اليابان «ياباناً» و أصبحن أوروبا ما هى عليه اليوم.

وحدهم العرب راحوا يبنون المباني ويسمّون الجدران ثورة ويأخذون الأرض من هذا ويعطونها لذلك، ويسمّون هذا ثورة.

الثورة عندما لاتكون في حاجة إلى أن نستورد حتى أكلنا من الخارج... الثورة عندما يصل المواطن إلى مستوى الآلة التي يسيّرها.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ١٤٨).

بالنسبة للدونية، يتم إنشاء أحلام محدودة تفشل حتى في تحقيقها. يُعدّ حسّان رمز للدونية الذي يحتضن الموت المأساوي:

«مات ولاحبّ له سوى الفرقاني.. وأم كلثوم.. وصوت عبدالباسط عبد الصمد.

ولاحُلم له سوى الحصول على جواز سفر الحج... وثلاّجة.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٣٩٤).

الإدارة غير المباشرة للشؤون السياسية للدول من خلال تمسك الحكومات الاستعمارية الجديدة بالأسس الأيديولوجية للأنظمة السياسية في الغرب، مثل القومية والاشتراكية وحتى الديمقراطية الليبرالية، كانت على حدّ أنّ الهيكل السياسي لهذه البلدان يشبه هيكل الدولة الاستعمارية السابقة، إذ تعيين وكلائها وعملائها على رأس هذه الدول هو من الأمور التي تظهر عنصر الدونية أكثر وضوحاً. (بيغينوغلو، ٢٠١٢م: ٤٥).

في كثير من الأحيان ترفض مستغانمي بصراحة وعلى لسان خالد بطل روايتها أساليب الحياة الاستعمارية التي فرضها المستعمرون على الطبقات الدنيا. سواء كانت هذه القضية متجذرة في عدم فهمه لثقافة أخرى أو بسبب كراهيته للمستعمرين، على أي حال، فإن أنماط الحياة التي فرضها المستعمرون وآثارها السلبية على المجتمع الجزائري أمر مؤسف وتنتقدها الراوية، الأمر الذى حسب وجهة نظر الكاتبة، قد يتسبب إرهاق شعبها ويأسه وحزنه.

الصورة التي تعطيها مستغانمي من هذه الفئة توضح بوضوح عناصر الطبقة الدونية وخصائصها في دراسات ما بعد الاستعمار، صورة أمة يحكمها الجهل، والتسهيلات مقسمة لا على أساس الجدارة والكفاءة ولكن على أساس العلاقات والاحتيال، والمعرفة والخبرة لا مكان لهما فيها:

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م/١٤٤٣هـ

«نحن شعب نصف مختلّ. لا أحد فينا يدري ما يريد بالضّبط.. ولا ماذا ينتظر بالتحديد.. إنّ المشكل الحقيقي هو هذا الجو الذي يعيشه الناس، وهذا الإحباط العام لشعب بأكمله. إنّه يفقدك شهية المبادرة والحلم والتخطيط لأيّ مشروع. فلا المثقّفون سعداء.. ولاالجاهلون ولا البسطاء ولا الأغنياء. قل لي يرحم والديك.. ماذا يمكن أن تفعل بعلمك إذا كنت ستنتهي موظّفاً يعمل تحت إشراف مدير جاهل، وُجِدَ في منصبه مصادفة ليس لسعة معرفته، وإنّما لكثرة معارفه وعرض أكتافه!» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٣٠٥).

إنّ أحد أهداف الاستعمار، وكذلك عواقب وجوده في البلد المستعمَر، هو تدمير الثقة بالنفس وكبرياء الأمم الخاضعة لقيادته:

«ها نحن نتقاسم كبرياءنا رغيفاً عربيّاً مستديراً كجرحنا.. رصاصة مستديرة الرأس.. أطلقوها على مربع أحمر، يتدرّب فيه القدر على إطلاق الرصاص على دوائر سوداء تصغر تدريجياً كالدوّار.. حتّى تصل مركز الموت.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٢١٢).

تتصوّر مستغاني في هذه الرواية الأساليب المختلفة التي فرضها المستعمرون على الطبقة الدونية. تعبّر عن آرائها حول ما بعد الاستعمار من خلال الحوار الذي يجري بين شخصياتها. تعتقد أنه في الهيمنة الاستعمارية، لا مكان للدونية وهي على الهامش، لا تستطيع الدفاع عن حقوقها، وتفشل في تحقيق الأحلام التي خُلقت لها. الدونية لا تعرف ما تريده من الحياة وتعاني من اليأس والخيبة ولم تعد قادرة على الحلم.

٢- ٥- الآخر

من هذا المنطلق، يتم نشر القيم الغربية والتقاليد الفكرية والأدب والمعرفة والبحث العلمي بوعي تاريخي، كما تم تهميش أو تجاهل التقاليد وأشكال الحياة الثقافية والتعبير غير الغربي في شكل مفهوم "الآخر".

كان فرانز فانون أوّل مفكّر أثار قضية "الآخر" في العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر، حيث يقول: «في هذا العنصر، هناك دائماً حديث عن شخص هو أكثر فاقداً للوعي مني، أكثر سواداً مني وأسوأ مني ... أبني رجولي على أنقاض من حولي.» (فانون، ١٣٥٥: ٢١٩)

وفقاً لخطاب ما بعد الاستعمار، تم دائماً تصوير الشرقيين، وخاصة المسلمين، على أنهم "آخرون" أو غرباء فيما يتعلّق بالغرب. يُعرَّف الشرقيون في روايات الرحلات وسرد القصص والنصوص الأدبية للغرب بأنهم شعب متوحش غير متحضر خالٍ من الحكمة ومخلوقات متخلّفة وعنيفة وعبيدشهوة، وكذلك

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م/١٤٤٣هـ

تم تحديد الأراضي الشرقية على أنها أماكن مظلمة ومجهولة يجب اكتشافها والتحكم فيها. تجاه ذلك، تم تصوير الغربيين على أنهم شعب متحضر وعقلاني لديه مهمة تاريخية هى نشر الحضارة (مهدوي زاده، ١٣٨٧: ١١).

في رواية "ذاكرة الجسد" يختلف "الآخر" بحسب وجهة نظر المتلقّي. إذا نظرنا إليه من منظار شعوب البلدان المستعمرة، فإن الآخر يشير إلى نظام الاستعمار والثقافة والسلطة والاستيراد، وإذا نظرنا إليه من وجهة نظر الدول المستعمرة، فإن "الآخر" يتحقق في جسد وثقافة وعقيدة وأنظمة الدول المستعمرة؛ لذلك، في رواية "ذاكرة الجسد"، يمكن تقييم الآخر حسب كل ما تم فرضه على المستعمرات من قِبَل الدول الاستعمارية. على سبيل المثال، تعتقد مستغانمي أنّ الثقافة المستوردة التي جلبها الغرب والاستعمار للمرأة الجزائرية تعني "الآخر". عندما يرى خالد "حياة" بالملابس الغربية، بعد أن أدارت ظهرها لحبها وفي الواقع عن وطنها، وزواجها من خائن للوطن والثورة، يشعر أنّ "حياة" لم تعد مألوفة له:

«ها أنت ذي أمامي، تلبسين ثوب الردّة. لقد اخترت طريقاً آخر ولبست وجهاً آخر لم أعد أعرفه. وجهاً كذلك الذي نصادفه في المجلاّت والإعلانات، لتلك النساء الواجهة، المعدات مسبقاً لبيع شيء ما، قد يكون معجون أسنان، أو مرهماً ضدّ التجاعيد.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ١٧).

في رواية "ذاكرة الجسد"، يتم رسم "الذّات" دائماً باللون الأبيض، بينما يتم دائماً رسم "الآخر" باللون الأسود. على الرغم من أن المؤلفة تحاول أحياناً إضافة اللون الرمادي إليه، إلا أن هيمنة الخطاب الأيديولوجي وانتقاد السود "الآخر" في عملها واضحة. على سبيل المثال، تقدم "الذّوات" على أنها شخصيات ذات قيمة و "الآخرين" شخصيات انتهكت أو عارضت القيم. خالد هو الذي يصور في حواره الداخلي الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم من أجل آمالهم ووطنهم ويعتبر من أدار ظهره لهذه المثل والوطن آخراً وخائناً:

«مربكة صور الموتى..

ومربكة أكثر صور الشهداء، موجعة دائماً. فجأة يصبحون أكثر حزناً وأكثر غموضاً من صورتهم.

فجأة.. يصبحون أجمل بلغزهم، ونصبح أبشع منهم.

فجأة.. نخاف أن نطيل النظر إليهم.

فجأة.. نخاف من صورنا القادمة ونحن نتأمّلهم.

كم كان وسيماً ذلك الرجل.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٢٥٦).

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م /١٤٤٣هـ

في أعمال أحلام مستغانمي، دائماً ما تصطف القيمة والأيديولوجية الثورية لـ "الذات" ضد أيديولوجية "الآخر" المضادة للثورة، والآن أصبحت "حياة" التي خانت مُثُلها بالفعل يعتبرها خالد على أنها دخلت فئة «أخرى»:

«كنت أراه يتدحرج أمامي من سلّم القيم، غباءً أو تواطؤاً لاأدري. فاحتفظت لنفسي بما سمعته عن تلك.. «المنشآت» وكل ما جاورنا من معالم وطنية بُنيت حجراً حجراً على العمولات والصفقات، وتناوب عليها السرّاق كباراً وصغاراً.. على مرأى من الشهداء الذين شاء لهم حظّهم أن يكون مقامهم مقابلاً.. لتلك الخيانة.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٢٣٤).

٢- ٦- خيبة الأمل

تُعدّ قضية اليأس من إعادة إعمار البلاد وتضميد جراح الاستعمار، من أهم القضايا التي تتواجه الشعوب المستعمَرة بعد استعادة استقلالها. هذا الإحباط كبير لدرجة أنه أحياناً حتى خالد وهو رمز لمقاتل وبطل قومي، يأسف للجهود التى بذلها من أجل الحرية والثورة:

«أكان التحاقي بالجبهة آنذاك محاولة غير معلنة للبحث عن موت أجمل خارج تلك الأحاسيس المرضية التي كانت تملأني تدريجياً حقداً على كل شيء؟» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٢٧).

إنه يعتقد أن وقت نضالهم لم يكن وقتاً مناسباً للثورة الثقافية، وأن كل هذه التغييرات الأساسية كانت ستذهب سدى بدون تعليم البشر:

«ولم يكن الوقت مناسباً لحلمي الكبير الذي لا أريد أن أسمّيه «الثورة الثقافية». بعدها لم تعد هاتان الكلمتان مجتمعتين أو متفرّقتين تعنيان شيئاً عندنا.

كانت هناك أخطاء كبرى تُرتكب عن حسن نيّة. فلقد بدأت التغييرات بالمصانع، والقرى الفلاحية والمباني والمنشآت الضخمة، وترك الإنسان إلى الأخير.

فكيف يمكن لإنسان بائس فارغ، وغارق في مشكلات يومية تافهة، ذي عقيلة متخلّفة عن العالم بعشرات سنين، أن يبني وطناً، أو يقوم بأيّة ثورة صناعية أو زراعية، أو أيّة ثورة أخرى؟» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ١٤٨).

يزداد إحباط خالد أكثر فأكثر عندما يُدان ويسجنه مواطنوه:

«الوطن الذي أصبح سجناً لاعنوان معروفاً لزنزانته، لا اسم رسمياً لسجنه، ولا تهمة واضحة لمساجينه، والذي أصبحتُ أُقاد إليه فجراً، معصوب العينين محاطاً بمجهولين، يقوداننى إلى وجهة مجهولة أيضاً. شرف ليس في متناول حتى كبار المجرمين عندنا.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٢٤٣).

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م /١٤٤٣هـ

في هذا اليأس والحيرة، يشبه خالد نفسه بالسلحفاة التي قُلّبت حتى لا تهرب:

«مدينة تواطأت معنا في التطرّف والجنون. مدينة «سادية» تتلذّذ بتعذيب أولادها. حبلت بنا دون جهد. ووضعتنا كما تضع سلحفاة بحرية أولادها عند شاطىء وتمضي دون اكتراث، لتسلمهم لرحمة الأمواج والطيور البحرية..

وها نحن بلا أفكار.. نبحث عن قدرنا بين الحانات والمساجد. ها نحن سلحفاة تنام على ظهرها، قلّبوها حتى لاتهرب، قلّبوها في محاولة انقلاب على المنطق.» (مستغانمي، ١٩٩٣م: ٣٤٤).

النتيجة

المواجهة بين الشرق والغرب هي عنصر مهم لدراسات ما بعد الكولونيالية وتعني في الرواية هذه بمعنى نوع من توجه الهوية الذي تبنّته الدول المستعمرة، باتباع المخططات التي وضعها الغرب في الأراضي المحتلة، وقد أدّى هذا النوع من التوجّه والاستسلام في النهاية إلى تحوّل الهوية الاجتماعية بكل أبعادها.

تبدي مستغانمي في روايتها بوضوح عن حبها للوطن المستعمَر وقيمه، وكراهيتها لكل ما يهاجم هذه القيم. يتخذ الوطن أشكالاً مختلفة من وجهة نظر مستغانمي، أحياناً يظهر على شكل قسنطينة، وأحياناً الجزائر، وأحياناً كل البلاد العربية وأحياناً يتم تقديم المرأة والحبيبة رمزين لوطنها المؤلم والمستعمَر.

تُعتبر اللغة من مصطلحات أساسية في نظرية ما بعد الاستعمار ولها مكانة خاصة في رواية مستغانمي. من أجل إظهار الصراع بين الشرق والغرب وأخيراً تحوّل الشرق في هذا الموقف، تولي مستغانمي اهتماماً بالغاً لعنصر مهم يُسمّى الصراع بين اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة. شخصيات الرواية وهم عرب يتحدثون الفرنسية بدلاً من العربية عندما يكونون غاضبين ومتحمّسين.

تولي مستغانمي في روايتها اهتماماً خاصّاً لقضية الدونية وترفض أنماط الحياة الاستعمارية المفروضة التي أتى بها المستعمرون إلى الطبقة الدونية. لأنّها حسب وجهة نظرها تسبّبت في إرهاق شعبها ويأسه وحزنه.

في رواية "ذاكرة الجسد" يختلف "الآخر" بحسب وجهة نظر المتلقّي. فإذا نظرنا إليه من وجهة نظر شعوب البلدان المستعمرة، فإنّ الآخر يشير إلى نظام الاستعمار والثقافة والسلطة والاستيراد، وإذا نظرنا إليه من وجهة نظر الدول المستعمرة، فإنّ "الآخر" يتحقّق في أنظمة الدول المستعمرة وثقافتها ومعتقداتها؛ لذلك، في رواية "ذاكرة الجسد"، يمكن تقييم الآخر حسب كل ما تم فرضه على المستعمرات من قِبَل

JOBS
مجلة العلوم الأساسية
Journal of Basic Science
ISSN 2306-5249
العدد الثالث
٢٠٢١م/١٤٤٣هـ

الدول الاستعمارية. على سبيل المثال، تعتقد مستغانمي أنّ الثقافة المستوردة التي جلبها الغرب والاستعمار للمرأة الجزائرية تعني "الآخر".

من القضايا الأساسية الأخرى في نظرية ما بعد الاستعمار هي قضية اليأس وخيبة الأمل. تؤدّي سنوات من النضال والمقاومة العبثية وانعدام الحرية والمطالب المشروعة إلى اليأس وإحباط المستعمَرين. هذا الإحباط كبير لدرجة أنّ خالد في بعض الأحيان، باعتباره الشخصية الرئيسية في الرواية، والذي يُعَدُّ رمزاً لمقاتل وبطل وطني، يأسف لكل الجهود التي بذلها من أجل الحرية والثورة.

رغم أنّ قضية الاستعمار من أكثر القضايا الواقعية التي تتصارع معها الأمة الجزائرية والدول العربية الأخرى، لكن أساس المواجهة الأدبية لرواية "ذاكرة الجسد" بالنظر إلى عناصر ما بعد الاستعمار، كان نهجاً رمزياً، وتعرض المرأة رمزا للوطن والجسر رمزا للعودة إلى الذّات ومدينة قسنطينة هوية عربية جزائرية في هذه الرواية. ومن وجهة نظر مستغانمي، خالد وهو بطل الرواية، رمز لالجزائر والقيم الثورية وبمعنى آخر "الذات"، و "حياة" هي رمز للاضطراب والنسيان والتلاشي الثقافي.

المصادر

١. الأسطة، عادل (٢٠٠٨)، أدب المقاومة من تفائل البدايات إلى خيبة النهايات، الطبعة الثانية، دمشق، مؤسسة فلسطين للثقافة.
٢. أشكروفت، بيل (١٣٩٢)، يكتب الإمبراطورية، ترجمة حاجيعلي سبهوند، الطبعة الأولى، طهران: نشر نارنجستان.
٣. أشكروفت، بيل، وغاريث غريفيث، وهيلين تيفين (٢٠١٠م)، دراسات ما بعد الكولونيالية: المفاهيم الرئيسة، ترجمة: أحمد الروبي، أيمن حلمي، عاطف عثمان، تقديم: كرمى سامي، الطبعة الأولى، القاهرة: المركز القومي للترجمة.
٤. برتنز، يوهانس ويلم (١٣٨٨)، النظرية الأدبية (مقدمة)، ترجمة فروزان سجودي، الطبعة الثانية، طهران: نشر آهنگ ديگر.
٥. بوين، علي ورطانسي، علي (١٣٨٠)، ما بعد الحداثة: التعاريف والنظريات والتطبيقات، ترجمة حسينعلي نوذري، طهران: نشر نقش جهان.
٦. ترنر، جاناتان (١٣٨٤)، الاستشراق وما بعد الحداثة والعولمة، ترجمة محمد علي‌محمدي، طهران: نشر يادآوران.
٧. رهنما، مجيد (١٣٥٠)، قضايا الدول الآسيوية والأفريقية، الطبعة الثانية، طهران: نشر جامعة طهران.
٨. سعيد، إدوارد (٢٠٠٦م)، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.
٩. فانون، فرانتز (١٣٥٥)، الثورة الأفريقية، ترجمة محمدأمين كاردان، طهران: نشر خوارزمي.
١٠. كولد، جوليوس وكولب، ويليام (١٣٩٢)، ثقافة العلوم الاجتماعية، ترجمة باقر فرهام، طهران: نشر مازيار.
١١. مستغانمي، احلام (١٩٩٣)، ذاكرة الجسد، الطبعة الأولى، بيروت: دار الآداب.
١٢. مهدوي زاده، سيّد محمد (١٣٨٧)، الإعلام والتمثيل، طهران: مكتب الدراسات الاعلامية والتنمية.

١٣. ميرزائي، فرامرز، وأميريان، طيبة (١٣٩٤)، «الرواية الجزائرية لما بعد الاستعمار ومحتواها وخصائصها اللغوية»، مجلة النقد الأدب العربي، العدد ٢، صص ٢٤٧- ٢٦٨.

١٤. يحيى‌بور، مرضية، وزينب صادقي سهل آباد، و جان اله كريمي مطهّر (١٣٩١)، «رنين الوطن في قصائد آنّا آخماتووا: دراسة وتحليل لديوان ركوييم»، مجلة البحوث النقدية لنصوص وبرامج العلوم الإنسانية، سنة ١٢، العدد الأوّل، صص ٩٧-١١٦.

١٥. إليوت، ترنر وترنر برايان (١٣٩٠)، الانطباعات في النظرية الاجتماعية المعاصرة، ترجمة فرهنگ ارشاد، الطبعة الأولى، طهران: نشر جامعه شناسان.

١٦. ييغينوغلو، ميدا (٢٠١٢م)، استيهامات استعمارية: نحو قراءة نسوية للاستشراق، ترجمة: عدنان حسن، الطبعة الأولى، بيروت: دار التنوير للدراسات والترجمة والنشر.

مجلة العلوم الاساسية
للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الاساسية